في منازل الاموات

زيارة القبور واكرام الموتى عادة شائعة عند أهل جميع المذاهب قديماً وحديثاً ، ولا يخفى ما فيها من العبرة والذكرى والوفاء . وقد خصص المسيحيون اليوم الثاني من هذا الشهر للقيام بهذا الواجب (٢ نوفمبر : تذكار الموتى)

هناك في مثل هذا اليوم بين تلك المنازل المقفرة أقضي ساعة من الزمن فى كل عام ، وأقوم بواجب تفرضه عليَّ المحبة ويقضي بهِ تذكار المودة . ساعة اقضيها في بكاء ورثاء فتولّد راحة في القلب وتسكيناً في الفؤاد ، كأن الاحزان تذوب مع الدموع المتساقطة ، والاشجان تتطاير وتضمحل مع الزفرات المتصاعدة

هناك في منازل الاموات بين القبور الساكنة وتحت أشجار السرو الباسقة وقفت وبكيت ، واتعظت وتعزّيت . . .

فيا طلاب العواطف الرقيقة ومحبي المواقف الرهيبة ، اقصدوا المقابر في مثل هذا اليوم فتشعروا بأرق العواطف وتمتعوا بأجل المواقف . . !

ويا عشاق الفنون الجميلة ، أيها الشعراء والمصورون أمّوا القبور فتلقوا غذاء لقريحتكم ، اسقوا أقلامكم بالدموع التي تذرف هناك ، فتسيل منها أرقّ القصائد وترسم أسمى المناظر وأبدع المشاهد

ويا أيها الاحياء زوروا منازل الاموات فتدركوا ماهية الحياة وجوهر الممات . . .

* * *

وصلتُ الى المقبرة فوجدت بابها مفتوحاً والناس يتقاطرون اليها أفواجاً ، وهم متشحون بالسواد حاملون الزهر والاكاليل المضفورة ، وقد استولى عليهم الانقباض ورفرف على رؤوسهم روح الخشوع . فدخلت مع الداخلين حاسر الرأس كابت الفؤاد . وما وطئت قدمي هذه الارض المقدسة حتى اعترتني هزة واستولت عليّ قشعريرة وهتف صارخ في صدري : « سلام على أهل القبور الدوارس ، سلام على سكان الديار الموحشة والمنازل المقفرة ، رحمة وسلام عليكم ايها الراقدون بسلام . . ! »

وقفت منفرداً في احدى زوايا المقبرة أدير الطرف حولي وأتأمل ما يكتنفني . . . هنا أمٌّ ثاكلة جاثية على ضريح وحيدها تذرف على بلاطهِ البارد عبراتها المحرقة وتسكب على الراقد طيه صيّب صلاتها الحارة . وهناك يتيم جاثٍ على قبر والدين اختطفهما ملاك الموت قبل الأوان . هنا أخٌ يبكي على رمس أخيهِ ، وهناك حبيبٌ يصلي على جدث حبيبهِ . وقد امتدت فوق هاتيك القبور اغصان السرو ذات الخضرة القاتمة الدائمة ، ناشرة على مراقد الموتى ظلها الرهيب ، وحفيف الاوراق فيها أشبه بالندب والعويل

أخذت أطوف في أنحاء المقبرة ، فرأيت قبوراً زينتها الاكاليل ونمت حولها زهورٌ ورياحين زرعتها يد المحبة وسقتها دموع الوفاء فنبتت رمزاً عن الحب ودليلاً على الذكر وحفظ العهد . ورأيت غيرها عارية مهملة وعلى جوانبها قليل من العشب اليابس وليس من يضع عليها زهرة الذكر او يذرف عليها دمعة الوداد ، فقلت : « اين الذين أحبوهم ؟ تبراً

منهم القريب ، وانصرف عنهم الحبيب . . . » . تابعت السير فاذا بأخشاب باليـة وعظام نخرة فوقفت عندها بكل خشوع واخبـات ، وتساءلت : لمن هي ياترى ؟

لو بُعثرت للخلق أطباق الثرى هل يُعرف المولى من العبـدِ

فسقياً لك يا موت ، أنت تسوّي بين الكبير والصغير ، فهذه بقايا الرفيع والوضيع ، ورفات الغني والفقير ، فمن يقدرُ ان يجد بينها فرقاً

الى هنا مصيرك يا ابن آدم مهمـا علوت وارتفعت . فجهلاً تتباهى وحمقاً تتفاخر وتعتزّ . ان الراقدين هنا كانوا مثلنا يعبرون نهر هذه الحياة فتردّد شواطئ النهر صدى أصواتهم وأغانيهم ، وها ان الموت قد أغلق أفواههم وأخمد أنفاسهم . . . تراءت لهم الدنيا بمجدها وزخرفها ، ومدت اليهم كأس ملذاتها ، فمدوا يدهم لارتشاف هذه الكأس ، فانكسرت على أقدامهم . وتجلت لهم الحيـاة بمظهر الغادة الحسناء فنظروا اليهـا نظرة العاشق المتيم ، فاذا بها قد انقلبت شمطاء شنعاء ثم اضمحلت كالدخان

وبينما أنا أسير بين القبور أستنطق مرمرها الناصع وأناجي الراقدين تحت حجارتها اذ خيّل اليَّ ان هاتفاً يقول :

كما أنتم كذا كنا كما صرنا تصيرونا

وخلت ان شبحاً قد خرج من كل ضريح وهو يشير اليَّ بكفنه قائلاً:

قف واعتبر يا من ترى قبري وما بي قد جرى
بالأمس كنتُ نظيركم واليومَ صرتُ كما ترى
قل : ربنا ألطف بنـا وارحم عظاماً في الثرى

فوقفت واعتبرت وترحّمت . ثم خرجت من تلك المنـازل مودّعاً الراقدين فيها متسائلاً : هل تطول غيبتي عنهم ، ام تكون عودتي اليهم قريبة لأودع حبيباً او نسيباً او لأرقد بينهم رقادي الاخير . . ؟

الشعر

قبل ان نعطي الـكلام قياده ، ونلقي على كاهل القلم زمامه ، لا نرى بدّاً من ان نعرّف ما هو المفهوم بالشعر عنـد أربابه وبماذا يختلف عن كل قول ليس بشعري

يطلقون لفظ الشعر اجمالاً على كل صناعة تقوم باظهار « الحسن البالغ » (Le Beau Idéal) ومن ثمَّ فقد يكون لحذّاق المصوّرين والموسيقيين وغيرهم نصيب في ذلك كما لصانع الشعر بالقول

أما على سبيل التخصيص ، فالشعر حقيقةً هو القول الذي يُظهر « الحسن البالغ » بالاقاويل الشعرية وهي الاقاويل المخيّلة فقط — اعني الغير موزونة — فالوزن واللحن

والمراد بالوزن العروض ، وهو رصف اللفظ وسبكه في قالب القريض . ويراد باللحن الانغام التي تحدث من الوزن عند نظم الكلام وسبكه في مهيع التفاعيل ، فاللحن اذن داخل تحت حكم القول الموزون . انما في بعض الاشعار يتولّد اللحن بنوع خصوصي بواسطة تطابق ألفاظ وتجانس حركات ، فتنبعث نغمات اكثر مما في سواها مثلما في نوع